

نَصِيحَةُ إِزْهَابِي لِإِصْلَاحِ التَّعْلِيمِ الْمُدْرَسِيِّ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فلا يخفى ما لتعليم النشأ من عظم الشأن وعلو المنزلة، فترى الدول تصرف من أموالها الكثير، ويؤتى بأهل الدراية ليشيروا بآرائهم، وتُستعرض النظريات، وتجرب البيداغوجيات، وتصدر المذكرات... ولا تزال الأيام تبين، أن هذا الشأن وغيره لا يصلح إلا بتحكيم الشرع، ولو بذلت من الأموال عدد الرمل، ولو جمعت منظري الإنس والجن وكان بعضهم لبعض ظهيرا...

وقد صار الواحد في أيامنا يسمع من أخبار التعليم وأعاجيبه وتصاريف الدهر فيه، ما يثبت الذي تقدم... ومن ذلك ما تجده وأنت تقلب نظرك في أخبار المغرب الأقصى:

تلميذ يطعن أستاذه في قفاه ...

تلميذ يكسر ذراع أستاذه...

إيقاف أستاذ يتحرش بتلميذاته...

معلم بالدار البيضاء اغتصب تلميذته...

وهذه أمها تشكوا، كان الله لمن كان مظلوما:

هذا وكان قد صدر قبل في شأن إصلاح التعليم: الميثاق الوطني للتربية والتكوين، ثم المخطط الاستعجالي، وجرب المغرب بيداغوجية الأهداف، ثم بيداغوجية الكفايات، وأنفقوا المليارات في الإعداد لبيداغوجية

الإدماج وُبدأ في تجربتها ببعض مراحل التعليم الابتدائي، فما إن مرت ثلاث سنين أو نحو هذا، حتى ألغى وزير التربية الجديد الدعوة إليها، وأيضاً: قد دُرست أمور كثيرة في المراكز التربوية: الأهداف والصّنافات والكفاية والمنهاج والجذاذات والتقويم والنظرية السلوكية والجشّطالية وغير ذلك...

هل قضيتم على مشكلات التعليم بكل هذا؟

يكفيك لتعلم، ما اشتهر في مؤسسات التعليم وثُبِّلَغ الأخبار أن العمل مازال جارياً به، من الصراعات وشغب التلاميذ على مدرسيهم، وقد يصل الأمر إلى التهديد بالقتل وقد تقدم نحو ذلك، فكأنني بالمدرس المسكين وهو يتجه إلى فصله يتمثل بقول الله تعالى: (سَدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ) وكأنني به يخرج من عمله يحمد الله ويتمثل بقوله جل وعلا: (وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ) ودع عنك من تجدهم من التلاميذ لا يحسنون القراءة والكتابة وقد جاوزوا الأقسام الابتدائية، وما تجده عند فئة منهم من الرغبة العجيبة لتخريب المقاعد والخربشة عليها وتكسير الأبواب والنوافذ وغيرها، وما يقع من الغش في الامتحانات...

والمدرس إذا رأى بعض ما تقدم أو نحوه، ورأى أن حسن المعاملة لا يجدي، توحشت طباعه وقسى وظلم، وربما تلفظ لتلاميذه بأقبح الألفاظ، فيبغض إليهم ما يُبلّغه من العلم، وبهذا تكون المدرسة التي أريد لها أن تُخرّج حملة العلم والخلق، تخرج جماعات تعلمت فاسد الأقول والمعاملات، نافرة من العلم. وأما خارج المؤسسات، فهناك جموع من الشباب لاصطياد الفتيات، ولعلمهم أيضاً يغرقونهن في المخدرات، فإلى أين يهوي أبناء الإسلام؟ وقل لي: كيف يتعلم التلميذ النبيه في هذه الأجواء؟ أم كيف يركّز في هذه الضوضاء؟

وطلبة الجامعات أيضاً، معروف ما يراه كثير منهم من اختلاف الفصائل والجماعات في الجامعة، والصراعات بينها وحملها السيوف على بعضها، وتدخّل قوات القمع وماتوقعه من الإهانة والضرب والعطب والتخريب والسرقات، تُوقع ذلك على كل من لقيته مذنباً كان أو غير مذنب، ويهيم الطالب هارباً بالليل والنهار، فكيف ستكون نفس الطالب مع هذا كله؟ وأي تحصيل يُرجى له؟ لاسيما إذا زدت على ذلك فقره وعدم كفاية المنحة المالية لسد حاجته.

فلا يُصلح ما وقع من الفساد إلا الحكم بالشريعة الإسلامية، ومن الحكم بها:

1- إصلاح الإعلام: من المعلوم عند الخاص والعام في المغرب الأقصى، جذب الأفلام المكسيكية المدبلجة الكائنة على بعض القنوات لكثير من الفتيات، ولعلمهم استبدلوها الآن بشيء من المسلسلات التركية، ومعلوم

ما في هذه الأفلام من منافاة الأخلاق، والله تعالى قد فطر قلوب النساء على الرقة والانجذاب إلى الرقة، فعلى أي شيء تريد أخلاق هذه الفتاة وهي ترى المظاهر الرومنسية على أحوال محرمة؟ وتشاهد ألفريدو يطارد كوادالوبي، وريكاردو يلعب مع كاميلا، ومغامرات خلود، وغير هذا مما يضحكون به على العقول ويفسدون بعرصه الأذواق؟

ثم ما ظنك بهذا الشاب المسكين، المبتلى بحب الأفلام الهندية، يرى شاروخان ومغامراته الرومنسية؟... هذا كله تخدير لشباب الإسلام، وبرمجة سيئة للعقل الباطن، ينتج عنها: بحث تلك الفتاة عن شاب تمثل معه المسرحية الرومنسية التي شاهدها، والشاب كذلك، وأنت تعلم الغلطة عند المراهقين، وتعلم انتشار المفاتن، فالنهاية معلومة: فضيحة أو انتحار أو شذوذ أو ذهاب حياء وسوء أدب، هذا أقل شيء.

دع عنك أفلام الجرائم التي فيها مشاهد للمطاردات بالسيارات ونحوها، وفيها التحبيب في حياة الغربيين، فهذا وأشباهه يولد في نفس الناشئ الشغب وحب الظهور الذي يضر بغيره، وعدم عيش واقعه، والاتباع الأعمى لأعداء دينه، وكل هذا يظهر على التلميذ في مدرسته، وينقله إلى زملائه، وقد قيل: كل إناء بالذي فيه ينضح، وما هي بعيد واقعة ذلك الطفل المسكين المغربي رحمه الله، الذي شنق نفسه تقليدا لمشهد في مسلسل خلود، فإن أول الأمر إصغاء، ثم رضى، ثم اقتراف، قال الله تعالى **(وَلَتَصْنَعَنَّ إِلَيْهِ أَفْنَدَةً الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرَّضَنَّهُ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ)**

2- منع اختلاط النوعين: هذا باب من أبواب الشر عظيم، فمن مساوئه: أنه قد يُخرج الفتاة عن طهارتها وصفات أنوثتها، فإنها تتعلم من اختلاطها بالصبيان سيء الخلق وقبيح الكلام، لأن الصبيان أكثر خروجاً من البيوتات، فهم يرون من البشر أشكالا، ويأخذون عن هذا وعن هذا، والنتيجة: قاموس جامع لأنواع السب والشتم والمكر، فإذا اختلطوا بالتلميذات، سمعن منهم، وأخذن عنهم، وتطعن بتلك الطباع، وإذا فسدت نساء قوم فكبر عليهم أربعا، فإن حتفهم آت ولو بعد حين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **(إياكم والدخول على النساء)** فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أفرايت الحمى؟ قال: **(الحمى الموت)** رواه البخاري ومسلم.

ومن مساوئ الاختلاط أيضا: التجربة على الفاحشة وتسهيلها، فإن ألفة النوعين للاختلاط وما فيه من الكلام والنظر والمضاحكة واللمس، وتطبيع القلب مع هذه المساوئ، يُسهل الطريق إلى ما بعده من الفاحشة ويُجَرِّؤُ عليها، لأن صاحبه صار يرى الأمر لا يخرج عن العادة، ولِيُعْلَمَ المقصود: أنظر إلى من لم يألف هذا الاختلاط، إذا اقترب من النوع الآخر أو كلمه تجده كأنه يقتحم عالما غريبا، ويدخل في أمر ما ألفته نفسه، فكيف بالفاحشة؟ وإن وقع فيها شعر بعظم ذنبه.

ومن مساوئ الاختلاط أيضا: إضعاف التركيز، لأن نفس النوع تميل إلى النوع الآخر، وحتى لو كان هذا الميل قليلا خافيا، فإنه يأخذ من تركيز ذهن المراهق.

3- منع التدخين والخمر والمخدرات والموسيقى: التدخين إدخال دخان خبيث، إن تجرأ عليه الناشئ، سهل جره إلى شراب خبيث أو استنشاق خبيث، والخمر والمخدر معلوم فعلهما: عداوة وبغضاء وضياح وتضييع، قال الله جل ثناؤه **(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ)** فلم العجب من حال التعليم في المغرب والتلاميذ يذوقون من هذه السموم، أما الموسيقى، فلا يخفى أنها تؤثر على نفس الإنسان وأخلاقه، فيُخشى على الشاب المبتلى بالموسيقى الصاخبة من أن تُدخل صخبها وفوضويتها إلى نفسه، فتتشرب ذلك، شيئا فشيئا، حتى ترى من أخلاقه صخباً وثورة على عادات قومه وعلى مدرسيه، واسأل أيضا من يدمن على الأغاني وما فيها من الكلام الفاسد المعسول، لترى كيف تطير به تلك الألحان إلى سماء الأوهام، فيحلم وهو يقظان، ويتشرب ما فيها من المعاني الفاسدة... ورأيي: أن الموسيقى أشد من الخمر والمخدرات في بعض الأوجه، وأن أصحاب الخمر والمخدرات إذا أدمنوا واستمروا، انتهى الأمر بكثير منهم إلى مصادمة الأحباب، والنوم في الشوارع، والصباح والحماقة، والغرق في أحوال الذل والدنایا، فيرى أحدهم الناس يرون عليه وقد بلغوا ما كانوا يؤملون، فمنهم من المشتغل، ومنهم المتزوج، ومنهم المكمل دراسته، وأما هو فباق على حاله لا يتحرك والدنيا من حوله تتحرك، فيندم ويقول في نفسه: عافاني الله من هذه البلية، ضعت وضيعت، فهل من إفاقة؟ ولكن صاحب الأغاني يبلغ السماء السابعة من الأحلام والسكرات، وهو مع ذلك يرى نفسه من أحسن الناس حالا، ومن أرقاهم ذوقا، هداك الله، دع عنك هذه السفساف، فإنك من أمة محمد صلى الله عليه وسلم... وأيضا: فلا يُستبعد أن يكون لأصوات الآلات الموسيقية تأثير يُبني شهوانية الإنسان إذا أدمن على استماعها، والله أعلم.

وكأني بأحد المتغربين الآن يصرخ قائلا: أيها الإرهابيون التكفيريون المَقْجَرُونَ ياخفافيش الظلام، تُحرمون الموسيقى؟ هل تريدون قتلنا؟ ماذا أبقيتم لنا؟ فالجواب: حنانك أيها المنفتح المتنور، وإني لأن أكون خفاشا مظلما أحب إلي من أن أكون حرباء متلونة، إياك أعني واسمعي يا جارة، أما الموسيقى فقد روى الإمام البخاري رحمه الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال **(ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر والحرير والخمر والمعازف)** المعازف: آلات العزف، وراحة النفس في سماع كلام الله، وقد أجاز الشرع الإنشاد الطيب بلا معازف، وأجاز الدف في العيد والعرس، ثم خذوا نصيحة من هذا الإرهابي المتواضع: الدين دين الله، فخذ به كله ولا تتلاعب، فليس كما ألفت في السوبرماركت تأخذ ما تشاء وتدع ما تشاء، وقال الله رب العالمين جل ثناؤه **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً)** فانظروا لأنفسكم، أيها المتدينون على مذهب السوبرماركت، وحقا، لقد أفضمت جميع المذاهب الأربعة...

4- إقامة الحدود الشرعية ومنها حد الزاني: معلوم أن الله فطر النفس الإنسانية على الميل إلى أشياء والنفور من أشياء، وذلك على حسب اللذة والألم، وأن النفس تميل إلى ما فيه لذة، وتنفر مما فيه ألم، ومعلوم كذلك أن لذة الوقاع ليست من جنس الأفكار العقلية، بل هي من جنس الأهواء النفسانية الطبيعية، فاستحقت

بذلك أن تُدفع بما يضادها من جنسها وهو الألم، نعم، قد تدفع لذة جسمية بفكرة عقلية، ولكن كلما زادت قوة نوع اللذة إلا وزاد مقدار خروجها عن سلطان العقل، ولذة الوقاع من أقوى الغرائز الطبيعية، فلا يسهل على سلطان العقل إذلالها، إلا إذا كانت الفكرة العقلية المضادة لها أعظم وأشد وألم، فالحاصل: أن الفرق كائن بين حركات القوة العقلية، والتفاعلات الجسمية الفيزيولوجية، وبين الشهوات والشبهات، فالشبهات تُدفع بما هو من جنسها وهو الأفكار العقلية، والشهوات تُردع بما هو من جنسها وهو الإيلامات المساوية أو الفائقة، أو بالأفكار العقلية التي توجب هذه الإيلامات، فترتدع النفس.

ولأجل ذلك قال الله تعالى (الرَّائِيَةُ وَالرَّائِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةً جَلْدَةً) هذا وغيره مما جاء به الشرع الحكيم، هو الذي يقطع ما يُسمع هنا وهناك من الأفعال التي تشوّه سمعة المدارس...

5- إلزام التلميذ بالمظهر الحسن واللباس الحسن: لأنّ اللباس والمظهر مؤثران على الشعور والمعاملة، وليس شعورك إذا لبست زيا عسكريا، كشعورك إذا لبست قميصا تقليديا، فتجد في نفسك بلبس الأول الشعور بحركة تناسب ذلك الزي أو مشية أنحو ذلك، وتجد في نفسك بلبس الثاني الشعور ولو قليلا بمعاني تعقل ووقار، فكذلك مظهر التلميذ ولباسه، بل هذا قد يكون أبين فيه، وانظر إلى لباس كثير من الشبان اليوم وأشعار رؤوسهم، يقلد كثير منهم من يروونه من السفهاء، فيفعلون كأفعالهم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من تشبه بقوم فهو منهم) رواه أبو داود.

6- إصلاح أمور الدنيا والمعاش: قلة ذات اليد، واحتقار الأكبر للأصغر، وتفسير مصالح العباد، من أعظم أسباب توحش الطباع وانتشار الضباع، قال الله تعالى (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) ورؤي: كاد الفقر أن يكون كفرا، أي: أنه يحمل الإنسان على البخل والسرقة والخيانة والغدر وقطع الطرق والقتل، وإذا نشأ الناشئ في هذه الهيجاء، فكيف يكون عند المدرس بلا هيجاء؟ وإن لم يحمل ضعف الحال وقلة اليد على هذه الجرائم العظام، فأقل شيء: الشعور بالقهر والغضب من الدنيا، ونفس الناشئ إذا كانت على هذا أو رأى عليه والديه، ذهب تركيزه، وضعف تحصيله، وفجر غضباته على زملائه ومعلميه... وأيضا، فإن إصلاح معاش العباد بإنشاء ما يشتغلون فيه ليعيشوا عليه، مذهبة للبطلان الذين يملؤون الشوارع ويُفسدون الذرية.

7- إشغال الشباب بما يجذبهم من العلوم والمهارات والرياضات ليحموا دينهم: قال الله تعالى (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ) في الشباب خير كثير، لكن الأنفس ميالة إلى الهوى، وإشغال الشباب بتحصيل علم يلتذ به عقله، أو مهارة ينفع بها، أو رياضة يقوي بها جسده ويُرْفِه بها عن نفسه، صرف لطاقة الشباب عن ما يضره من الفواحش والدخان والمسكرات والمشاكل في مدرسته، وصرف له عن لزوم البطلان أصدقاء السوء، وتنمية لقوته العلمية والعملية ليدافع بها عن دينه.

8- إقامة مجالس الذكر للعامة: لأجل تحسين الأخلاق، وترقية الأذواق، فإن الناشئ إذا كبر في قوم كانوا على هذا، صار يستبشع ما يضاد ذلك، وإن فعله ثم نُصح فيه، أقر بخطئه، وكان أقبل للنصح من غيره ممن يرى والده طماعا يصرخ في الناس، ويرى أمه مشاكسة تنادي بالويل والثُّبور، فأين الأدب؟ وأين الذوق الحسن؟ فمثل هذا الولد المسكين، كيف تظن فعله إذا دخل مدرسته؟ وقد قيل: من أشبه أباه فما ظلم وأفضل منه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)

وهذا يتبين أن حصر إصلاح التعليم في بعض أمور ضيقة، لا ينفع ولا يدفع، ونفع العالمين في تحكيم شرع رب العالمين، والحمد لله على نعمة الإسلام وأعظم بها من نعمة.

للكاتب الأديب:

أبو إسماعيل المغربي

-حفظه الله ونفع به-

5/شعبان/1434

June/13/2013